المبحث الثالث

أرسطو وفكره الاجتماعي

لقد قال أفلاطون إنّ الاغريق يحبون المعرفة كحب الفينيقيين للتجارة. وواقعاً فإنّ الاغريق، وعلى الاخص في القرنين الخامس والرابع ق.م، وصلوا بالفكر العام إلى مستويات قلّ أن تتكرر على صعيد إنساني. إذ في الوقت الذي ارتبطت فيه الفلسفة الصينية القديمة بالاخلاق (Morals) على نحو قيّد حركتها، فإنّ الفلسفة الهندية اصطبغت بصبغة المصاحبة للديانة (Handmaid of Religion) .كما كان الحال بالنسبة للمسيحية في القرون الوسطى، فإنّ الفكر اليوناني تميز بالاستقلال (Independence). كما إنّه كان حراً (Free) وهو، أي الفكر، ليس بالضرورة شر إذ إنّه خير بالتأكيد. وهو ليس وسيلة وإنّما غاية. كما إنّه ليس مجرد ميل وإنّما لازمة. ورغم إنّ الاغريق لم يلتفتوا بشكل كافٍ إلى قدرة الفكر على المحق (Destruct) والخلق(Creation) وإنّ وظيفة الفكر هي العمل ضد التنعم والراحة وإنّه يهدم قبل أن يبني، فقد وظف الفكر أغريقياً لإعلاء شأن الإنسان وتمجيده. هذه العقلانية إنّما تعمل على إدراك للذات (Self-realization) وهو أرفع ما يمكن أن تصل إليه العقلانية في تعريف الإنسان بذاته من دون حاجة إلى غيب أو خيال. وكما أكد ذلك أرسطو فإنّ السبب (التعقل) مقدس، ومقارنةً بالإنسان فإنّ الحياة مقدسة، وإنّ ما هو موافق للأشياء بطبعه فإنّه متوافق لكل شيء ومع كل شيء. لذا فإنّ الإنسان وحياته العقلانية، وهي الحياة الاحسن والاسعد هي دالة على إنّ هذا الإنسان وقبل أي شيء آخر هو السبب[1].

Chambliss, R., Social Thought: From Hammurabi to Comte, Holt Rinehart nston (N.Y) 1951, p. 179

لقد مر أرسطو طاليس (Aristotle) (384- 322 ق.م) بتجربة حياتية مريرة لا تقل صعوبةً وتعقيداً عن تلك التي مر بها أستاذه أفلاطون ومن قبله أستاذهما سقراط. ولد أرسطو في أستاغيرا وكانت مستعمرةً يونانية تبعد حوالي 320 كم^2 إلى الشمال من أثينا. ولكنّه قضى معظم حداثته في بيلا عاصمة مقدونيا في شبه جزيرة البلقان، وهي بمثابة (الغرب الحوشي) في العالم القديم. وكان أبوه قد عيّن طبيباً في بلاط الملك أمينتاس والد فيليب وجدّ الاسكندر. وكثيراً ما كان أرسطو وفيليب يلعبان معاً وهما لايزالان طفلين. وكان فيليب يكشف عن غطرسة الامير ووحشية القط البرّي. أما أرسطو الصغير فقد تعلم كيف يضبط مشاعره إبقاءاً لحياته. كما أستخلص إنّ القدرة على ضبط النفس هي أحسن وسيلة لحماية الإنسان من غوائل العالم. وكان أن أصبحت هذه الفكرة فيما بعد مبدأً أساسياً في فلسفته. وما إن بلغ الثامنة عشرة من عمره حتى غادر مقدونيا ليلتحق بأكاديمية أفلاطون، وكان الطلبة الاخرون ينظرون شزراً إلى هذا (الاجنبي المتحذلق) الصغير. فقد كان أرسطو دمث الاخلاق رقيقاً أنيقاً مؤدباً يرتدي من الازياء أحدث الطراز ويتحدث بلثغة حتى إنّه عندما وقع نظر أفلاطون عليه لأول مرة بادره بقوله: لعله من صواب الرأي أن تقلل من عنايتك بملابسك وتزيد من اهتمامك بعقلك". ولكن لم تنقض بضعة أيام على التحاق الطالب الصغير بالاكاديمية حتى أثبت لأفلاطون إنّه يمتاز بعقليةٍ من أخصب العقليات الموهوبة في العالم. فقد كان مستعداً لتقبل كل أوجه المعرفة الممكنة من علم الفلاسفة الاقدمين، وتأملات سقراط إلى آمال أفلاطون. فضلاً عن فروع العلم المختلفة الاخرى مثل السياسة والشعر والقصص التمثيلي وعلم النفس والتاريخ الطبيعي والبيان والطب والرياضيات والفلك. وفي السنوات التالية لاحظ أفلاطون إنّ أكاديميته تتكون من جزئين أولهما جسم طلبته وثانيهما عقل أرسطو[1].

---

[1] توماس، هنري، مصدر سابق، ص 108- 109

أرسطو ومدرسته الفكرية

رغم تلمذة أرسطو على أفلاطون وتلمذتهما معاً على سقراط فإنّ أرسطو اختلف عن أستاذه أفلاطون إلى حد التقاطع معه فكرياً. ولعل أبرز أوجه الاختلاف إنّما كان يتعلق بنظرة أرسطو للإصلاح الاجتماعي التي كانت الهاجس الاساس لأفلاطون، والتي وصل بها إلى تقديم نموذج بديل لـ (الجمهورية) بعد أن يئس من إصلاح النظام الاجتماعي السائد وكان عليه أن ينشئ مصنعاً لبناء مواده الفكرية الجديدة تمثل في أكاديميته. الا إنّ أرسطو وبحكم نشأته وتأثير حرفة والده (الطبيب) عليه وصلته بحاكم مقدونيا المقبل (فيليب) ونظرته الموضوعية لأثينا ومجتمعها انطلاقاً من انتمائه إلى خارج نطاق هذا المجتمع، كان أكثر واقعية في محاولاته الإصلاحية التي ظلت مرتبطة بأرض المجتمع دون وهم أو مثال. وتأسيساً على الاختلاف بين خيالية أفلاطون وواقعية أرسطو، فقد أنشأ أرسطو مدرسة لتصنيع المواد الفكرية التي احتاجها في بناء فكره الاجتماعي ولتجميع هذه المواد فيها. فقد جمع في هذا البناء مكتبة كبيرة وأنشأ فيها حديقة للحيوان ومتحفاً للتاريخ الطبيعي. وسميت المدرسة فيما بعد باللوقيين (Lyceun). كما سمّى الطلاب بالمشائين؛ وسميت فلسفتهم بالمشائية نسبةً إلى المماشي المسقوفة (Pereptaoi) التي كان أرسطوطاليس يحب أن يسير فيها مع طلابه وهو يحاضرهم. وقامت منافسة حادة بين مدرسة اللوقيين التي كان معظم طلابها من الطبقة الوسطى وبين المجتمع العلمي الذي كان يستمد معظم أعضائه من طبقة الاشراف... ثم خفّت حدة هذه المنافسة فيما بعد حين وجه المجمع العلمي اهتمامه إلى الفلسفة، وحين أخذ المجمع العلمي يعني بالعلوم الرياضية (الرياضيات) وما وراء الطبيعة والسياسة، وأخذت مدرسة اللوقيين تعني بالتاريخ الطبيعي. وكان أرسطو يطلب إلى تلاميذه أن يجمعو المعلومات من الميادين العلمية المختلفة، وأن ينسقوها كعادات البرابرة، وأن يجمعو دساتير المدن اليونانية، وتواريخ الفائزين في الالعاب البيتية والديونشيا الاثينية وأعضاء الحيوانات وعاداتها وأوصاف النباتات وتوزيعها وتاريخ العلوم والفلسفة وأضحت هذه العلوم ذخيرة طيبة من المعلومات التي يستمد منها رسائله المختلف

التي يخطئها[1]. وبذا فإنّ أرسطو وإن كان قد تعامل مع الفكر ومشكلاته ووضع معرفته لإصلاح مجتمعه، فإنّ مدخله إلى مثل هذا الإصلاح كان من خلال العالم الطبيعي. أي إنّه بدأ بالطبيعة محاولاً التعرف على حركتها وصولاً إلى القوانين التي تحكمها وما يؤثر في فاعلية هذه القوانين ايجاباً أو سلباً. ومن ثم يوظف معرفته في المجال الإنساني متخذاً من استقراءاته ومقارناته في العلوم الطبيعية دليله النظري مما طبع كتاباته بطابع أكثر التزاماً وجفافاً. فقد ضاعت عن معظم كتاباته، تلك الانسيابية الخيالية لأفلاطون التي كانت ترتفع بالإنسان في أثينا، وما زالت تؤدي الغرض نفسه في الوقت الحاضر، فوق مشاغله اليومية. فاتحةً أمامه مجال الخيال لكي يكون حالماً وليس عالماً (مدركاً). لذا فقد انطبق عليه وصف الفيلسوف (Philosopher) فهو جاد دقيق متحفظ. وهذا واضح في مخلفاته الفكرية التي وصل منها رسائل ستة هي:

1. رسائل في المنطق، وتتضمن مقولات، شروح، تحليلات سابقة وتحليلات لاحقة.

2. علوم وتتضمن موضوعات، استدلالات سوفسطائية وهي على نوعين:

أ. علوم طبيعية من طبيعة، ميكانيكيا، هيئة وظواهر جوية؛

بـ . تاريخ الحيوان، أجزاء الحيوان، حركات الحيوان، انتقال الحيوان، تناسل الحيوان؛

جـ . علم النفس في الروح، مقالات قصيرة في طبيعة العالم.

3. ماوراء الطبيعة.

4. علم الجمال في البلاغة والشعر.

5. علم الاخلاق في النيقوماخية والاوديمية.

6. السياسة وتتضمن علم السياسة ودستور أثينا[2].

يورانت، قصة الحضارة، م2، ج2، ص 494

أرسطو والفكر الارسطوطاليسي

إنّ الخلاف الرئيس بين أفلاطون وأرسطو هو إنّ الاخير – أرسطو– كان عالماً أكثر منه فيلسوفاً. لذا فقد نظر إلى الظواهر الطبيعية والاجتماعية ثم مشكلات مجتمعه السياسية نظرة واقعية. وهذا يعني إنّ النسبية وليس الإطلاق هي الوسيلة التي يمكن أن يفهم بها الكون والمجتمع والإنسان. ولما كانت النظرة النسبية تعني تشخيص الظواهر على صعيد الواقع فقد دعت الحاجة إلى إبتكار وسيلة تبلورت فيما سميّ بالمنطق الارسطوطاليسي (الصوري)، الذي بقي فعالا بصفته وسيلةً للوصول إلى الحقيقة حتى أستبدل بالمنطق التعارضي (الجدلي). فبادئ ذي بدء وضع أرسطو أسس علم جديد هو المنطق أو قوانين التفكير الصحيح. وكان سقراط وأفلاطون قد أصرا على تحديد ألفاظهما. أما أرسطو فقد ابتكر صيغة نصل عن طريقها إلى التعاريف كافة، وسمّى هذه الصيغة بـ (طريقة القياس). والقياس معناه جدل مبني على تفكير منطقي. ويتكون هذا الجدل من قضايا ثلاث: مقدمة كبرى ومقدمة صغرى ونتيجة. فمثلاً على المقدمة الكبرى: ينتمي أفلاطون إلى صنف الحيوان. ولكن كيف يتميز عن الحيوانات الاخرى، مثل الثعلب والاسد والحصان؟ فهذا يجرنا إلى المقدمة الصغرى: أفلاطون عاقل. ومن هنا نصل إلى النتيجة: أفلاطون حيوان عاقل[1]. وقد يساء إستخدام هذا التمرين العقلي بافتراض مقدمات غير صحيحة تترتب عليها نتائج غير صحيحة. لذا فقد وضع أرسطو العديد من الضوابط والقواعد الحسابية لكي يعصم قياسه من الوقوع في مزالق الاخطاء، مما دفع فولتير إلى القول: «إذا أردت أن تتحدث اليّ فتعلم كيف تستخدم منطق أرسطو». كما وضع أرسطو نظرية عن الكون، رغم إنّه خالف بها نظرية كوبرنيكوس التي نشرها عام 1543م.، باعتبار الارض مركزاً للكون فضلاً عن آراء خاصة بعالم الحيوان والنبات وتطور الاحياء والعديد من التصورات، التي رغم إثبات عدم صحتها عن طريق العلم الحديث، الا إنّها تمثل ارهاصات لتعرّف الكون والطبيعة كونهاعوامل كانت مجهولة بالنسبة للعقل البشري، ومحاولة لاستشراف المستقبل. الا إنّ الإضافة الفكرية الحقيقية لأرسطو، فضلاً عن إلى

إبتكاره لطريقة منهجية في البحث والتقصي عن طريق حمل حادثات حاضرة على حقائق سابقة وصولاً إلى توليد فكري جديد (المنطق)، إنّما تتمثل في النظرة الجديدة إلى القضايا الثلاث التي طرحها أفلاطون، والتي مثلت الحلقة الارتكازية لفكره؛ وهي:

1. نظرية المثل؛
2. طبيعة القوة المحركة (الخالق)؛
3. واجب الإنسان.

لقد دارت فكرة أفلاطون في مثله على إنّ هناك انفصالاً بين مثال كامل (نموذج) وبين مثال ناقص (حالة) في الكون والحياة والمجتمع. مثل هذا النموذج الكامل هو الذي يحرك الكون أو الحياة والمجتمع لكي ترقى إلى مستوى النموذج. ولم يختلف أرسطو عن أفلاطون في وجود وأهمية النموذج الكامل. الا إنّ الخلاف بين نموذج أفلاطون ونموذج أرسطو هو إنّ نموذج أرسطو ليس منفصلاً عن الكون والحياة والإنسان. بل على العكس من ذلك إنّما هو الصورة (Image) التي توجد داخل هذه التكوينات (كون- حياة- إنسان). لذا فإنّها أشكال لجوهر داخلي (ذاتي). تسعى مثل هذه التكوينات إلى أن تصل بحركتها وسلوكها إلى ما أودع منها من مضامين (صور). أما الإله في فلسفة أرسطو فهو القوة المغناطيسية التي تبعث في العالم الحياة وتنشطه. وهو ليس شخصاً وإنّما قوة – مبدأ طاقة خالصة- قوة لم تخلق ولكنّها تحول المادة كلها إلى صورة، والحياة بأكملها إلى غد. وقصارى القول فهو وصفة رياضية لا تنفعل بعاطفة، ومجردة لا يحدّها زمن أو مكان، وليست هي بالذكر أو الانثى[1].

وفيما يتعلق بواجبات الإنسان، أي سلوكه وعلاقاته بمجتمعه، ثم ما يمكن أن يكون عليه هذا المجتمع من الصلاح في حياته يكمل صلاحه هذا نظام سياسي عادل في حكمه مقسط في تطبيق سلطته، فإنّ أرسطو وإن قرن، كأفلاطون، بين الاخلاق (القيم والمعايير) وبين الصلاح والعدل (النظم الاجتماعية والسياسية) فقد اختلف معه في توضيح العلاقة بين الاخلاق وبين كل من النظامين الاجتماعي والسياسي.

---

[1] المصدر نفسه، ص 118- 119

إذ انطلق وبفعل واقعيته من إنّ آراء أفلاطون في الجمهورية مغرقة في خياليتها. لذا فهي تفتقر إلى الجذور الارضية التي يمكن أن تجعل منها (وصفات) ممكنة التطبيق في عالم الواقع. ليس من الممكن الاخذ بآراء أفلاطون وفي الجمهورية بالذات لتكون نافعة على صعيد دولة أو حتى مدينة. إذ يمكن أن تنجح على مستوى دائرة إنسانية ضيقة كالاسرة. مما دفع أرسطو إلى تقديم مفهوم مختلف للأخلاق أطلق عليه اسم (الاخلاق الوضعية)، والتي يمكن أن نفسرها في الوقت الحاضر بإنّها الاكثر ارتباطاً بالمجتمع أو هي واقعاً إفراز اجتماعي. علينا أن ننسى الاخلاق النظرية التي لا يمكن تطبيقها الا في مكان خيالي للكمال البشري (يوتوبيا)، ثم نركز جهودنا على الاخلاق العملية التي تصلح لهذا العالم الذي نعيش فيه. فيجب الا نفرض مستوى من الفضيلة لا يمكن أن يصل إليه الفرد العادي أو نظاماً للتربية بعيد عن متناول الدولة العادية. بل يجب علينا أن نهتم بنوع الحياة التي في وسع غالبية الافراد أن يدركوها، وبأنواع الحكومات التي في متناول غالبية الدول أن تحصل عليها[1].

وتطبيقاً لتصوره عن الاخلاق الوضعية، وإنّ الصور المثالية موجودة في داخل كل من الكون والحياة والمجتمع، فإنّ الوصفات العملية المعتمدة على التشخيصات (المنطقية) يمكن أن تعيد الموازنة لحركة الإنسان. إذ إنّ التعرف السليم لدى أرسطو ليس السعي للوصول إلى المستحيل الاخلاقي (المثل العالية)، وإنّما محاولة التوسط بين حديّن متناقضين، أي بين الافراط والتفريط. فالشجاعة هي حدّ عملي بين التهور والجبن. والكسب هو حدّ عملي بين النهب والاتكال. ولعل أهم توظيف له لقاعدته الاخلاقية هذه نظرته للمال ومعارضته للربا. وذلك لإنّ المال قد قصد به أن يكون أداةً للتبادل وليس كأم للفائدة. فالربا الذي يعني توليد المال من المال هو أشدّ أساليب الربح منافاةً للطبيعة. فالمال يجب الا يتناسل. ولهذا السبب فإنّ مناقشة نظرية المال ليست بغير جديرة بالفلسفة. ولكن أن تكون منهمكاً بالمال أو بأستجماع المال فهذا لا يليق برجل حر[2]. كما حاول أن يحدد سن الزواج بالنسبة لكل من

---

(1) المصدر نفسه، ص 120- 121

(2)

الرجل والمرأة. واهتم بالذات بالفترة التي سماها (زمن الاستنسال). حيث عدّها منتهيية بالسبعين من العمر بالنسبة للرجل وبالخمسين بالنسبة للمرأة. لذا فهو ضد الزواج في سن مبكرة جداً أو سن متأخرة جداً بايولوجياً ونفسياً واجتماعياً. كما أباح للدولة أن تضع حدوداً عليا ودنيا للزواج وللجنسين وأن تسمى أفضل مواسم الحمل. كما طالب بعدد مثالي لسكان كل دولة؛ لإنّه اعتقد بوجود خلاف بين الشعب والدولة التي يمكن ضبطها عن طريق الدستور. ويبلغ فكر أرسطو الاجتماعي ذروته في تفسيره للشكل الذي أضفى على الإنسان القدرة على التكيف وتعميق اجتماعيته. مؤكداً إنّ الضبط الاجتماعي وحده بمقدوره أن يعطيه الفضيلة ومن خلال النطق بعث الإنسان والمجتمع. وطور العقل من خلال المجتمع وأوجد النظام من خلال العقل، وأوجد المدينة من خلال النظام. وللفرد في دولة منتظمة كهذه ألف من فرص التطور ودروبها مفتوحة أمامه. الامر الذي لا يمكن للحياة المتوحدة المنعزلة أن تتيحه أبداً. فأن يعيش المرء وحيداً فعندئذ يجب أن يكون إما حيواناً أو إلهاً[1].

الا إنّ أرسطو لا يترك بناءه الفكري من دون أن يرسم له خطوط نظامه السياسي، واعتماداً على الالة الفكرية التي ابتكرها والتي سميت بعد وفاته الاورغانون (Organon). أي رسالاته في المنطق. فقد درس أرسطو مع طلابه (158) دستوراً يونانياً. قسم هذه الدساتير إلى ثلاثة أنواع مختلفة: ملكية وأرستقراطية وتمقراطية، أي أصحاب السلطان، وأصحاب المولد الشريف، والنبلاء. وكل نوع من هذه الانواع قد يكون صالحاً حسب زمانه وظروفه. وكل حكم حسن إذا كانت السلطة الحاكمة تعمل لمصلحة الناس جميعاً لا لمصلحتها الخاصة. فإذا لم تفعل هذا فكل حكم سيّئ. ومن ثم كان لكل أنواع الحكم الصالح شبيه فاسد حين يكون حكماً لمصلحة الحاكمين لا لمصلحة المحكومين. ففي هذه الحالات تنحط الملكية؛ فتصير استبداداً والارستقراطية فتصبح الجركية والتمراطية؛ فتكون ديمقراطية أي حكم العامة[2].

---

[1] المصدر نفسه، ص 183

[2] ديورانت، قصة الحضارة، م2، ج2، ص 509- 510